فتيحة الشرع
كاتبة في مجال البيئة والتنمية – الجزائر
عضو الرابطة العربية للإعلاميين العلميين
fatihachara@yahoo.ca

زراعة النخيل هي الحل المستدام لتنمية الجنوب الجزائري

في الجنوب الجزائري، العلاقة بين الإنسان والنخلة علاقة عمرها تاريخ البشرية

بلاد النخلة ما تخلى

في تراثنا الشعبي حكمة تقول (بلاد النخلة ما تخلى) بمعنى أن البلاد التي تنبت فيها النخيل ويحافظ عليها أهلها من جيل لآخر لا تعرف الجوع ولا الحاجة. وجاء أيضاً في الأثر «لا يجوع بيت وفيه تمر» وكذلك «إن التمر يذهب الداء ولا داء فيه» وأعظم من ذلك كله ما جاء في القرآن الكريم «وهو الذي أنشأ جنات معروشات وغير معروشات والنخل والزرع مختلفا أكله والزيتون والرمان متشابها وغير متشابه كلوا من ثمره إذا أثمر وأتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين» (الأنعام 141)

الحال في الجنوب...

واحات الجزائر؛ كباقي واحات المغرب العربي وحتى الوطن العربي على امتداده؛ ارتبط وجودها ارتباطاً وثيقاً بزراعة النخيل. النخلة كانت وستبقى مصدر رزق وعنصراً من عناصر التوازن البيئي بالواحات إلا أن عوامل كثيرة تهدد وجودها وتهدد أصنافاً عديدة من التمور (أكثر من 60 صنفاً) لدرجة أن بعض الأصناف اختفت كلياً من السوق وحتى من الواحات، ناهيك عن الحرف اليدوية التراثية التي تعتمد على الجريد والسعف والكرناف وباقي مكونات النخلة. إذا استمر وضع كهذا سنفقد ثروة أساسية لا بديل لها إلا بحماية التنوع البيولوجي المهدد بالزوال، واليوم أصناف كثيرة من التمور تشكو الإهمال في حين زالت أصناف أخرى. مرض البيوض يترأس قائمة العوامل التي تهدد النخيل في المغرب العربي وشمال أفريقيا ولهذا وجب التوجه إلى تنويع الأصناف بعيداً عن الاعتماد الكلي على صنف «دقلة نور» ذي السمعة التجارية العالمية.

إضافة إلى الآفات ومتطلبات السوق، ساهمت عوامل أخرى في تدهور وضعية النخيل

والتمور، تختلف حدتها من منطقة لأخرى وهي: التصدير نحو الأسواق المحلية المجاورة، الوطنية والعالمية وتخلي الشباب عن مهنة الزراعة والاتجاه إلى وظائف أخرى بالإضافة إلى زحف الإسمنت الذي أدى إلى تقلص الواحات.

مجهودات تبقى محاولات...

في سنوات مضت ظهرت محاولات لإنقاذ الوضع كإنشاء مزرعة نموذجية يتم فيها جمع أصناف مختلفة من النخيل بغرض حماية الأصناف المهملة، لكن مثل هذه المزارع يتطلّب صيانة وتعهداً بشكل مستمر وهو ما لم يمكن ضمانة وبالتالي لم يعمر هذا النوع من المشاريع طويلاً. كما يَعتبر المشروع أن الفلاح العنصر الأساسي الذي يجب تحسيسه (توعيته) وتزويده بالمعلومات والإرشادات، حتى الدعم المادي والتسهيلات، ليتوسع الاهتمام ليشمل الجمعيات والباحثين لتكوين بنك من المعلومات تستعمل للاستفادة من التجارب الرائدة سواء في الميدان أو في مخابر البحث.

فوائد وعوائد

أثبتت التجربة أن نواة التمر تصلح لأن تكون علفاً جيداً للماشية مما ينتج عنه زيادة في إنتاج الحليب واللحوم، كما أن التمر هو الأنسب لتغذية الإنسان خاصة في البيئة الصحراوية فهو يحتوي على السكريات سريعة الامتصاص (الهضم)، الفوسفور، حريرات مهمة للنشاط الفكري والعضلي. كما يدخل التمر في تحضير عدة حلويات وحتى مشروبات محلية الصنع مثل: زيريزة، مقروط التمر، الثريد، الرفيس، زيادة على مربى اسمه الرُّب.

ليس هذا فقط بل فوائد النخلة أكثر من ذلك، فعجينة الورق تصنع كذلك منها، وكذلك البخور المعطر للجو وغير المضر بالبيئة يصنع أساساً من بعض أصناف التمر اليابسة. ولأن النخلة جزء من حياة وتراث الإنسان الصحراوي فهي حاضرة في ألعابه وأشعاره وأغانيه وحتى حكمه لدرجة أنها وشريكة

الحياة في منزلة واحدة، فكلاهما رمز للصمود في وجه المعاناة والظروف القاسية، والعطاء وكلاهما ملاذ للرجل. وللمرأة أيضاً نصيب من المهام، فحين تُجنى التمور، تقوم المرأة بعملية الفرز، فالجيد للتسويق وما تبقى تتكفل بتحويله إلى مستحضرات أخرى منها: الخل، الخميرة، المربى.

إمكانية التعاون العربي

أغلب الدول العربية تتواجد بها زراعة النخيل والمؤكد أن كل واحدة منها تتوفر على معلومات ومعطيات مهمة عن زراعة النخيل، وبالمقابل كل واحدة لها من التجربة والمشاكل ما يدفعها إلى ضرورة البحث عن مجالات للتعاون وتبادل الخبرات. هنا يظهر جلياً دور كل وسائل الإعلام بكل أشكالها: المكتوبة، المسموعة والمرئية، في ربط طرفي الحلقة التي تنطلق من الفلاح وتصل إليه مروراً بقطاعات الفلاحة، البيئة، معاهد البحث، الصناعة، التجارة، السياحة وغيرها.

إن كل منطقة لها أصناف خاصة بها تتحدد وفق نوعية الماء والتربة والمناخ. حتى في الدول العربية وفي وقت مضى، كانت تُستغل كل مكونات النخلة: فمن الجريد والسعف تُصنع الأدوات والأثاث والتحف؛ ومن الجذوع سقوف البيوت والأبواب والمقاعد، أما الهش من الجذوع فيستعمل وقوداً أو أحواضاً لغرس نباتات الزينة، وضمن هذه السلسلة تنتعش عدة قطاعات وتسترزق عدة عائلات.

العودة إلى الأرض هي التنمية

في حين هجر الكثير الأرياف ونبذوا خدمة الأرض، قرر البعض وهم أقلية خوض تجربة الاستصلاح بزرع هكتارات واسعة بعيداً عن صخب المدينة وأجوائها الملوثة، مراهنين على أراض عذراء لتكون مستقبلاً تعويضاً لتلك التي اكتسحتها المدن الآخذة في التوسع. وأيضاً لتكون مصدراً هاماً يساهم في انتعاش الزراعة وفي خلق أنظمة بيئية تراعي التوازن وتحافظ على التنوع البيولوجي.

تلك التجارب غالباً ما نراها تصطف على حواف الطريق الوطني رقم واحد في شقه الصحراوي، حتى يتحاشى أصحابها صعوبة الوصول إليها بسبب غياب المسالك. وجهتنا كانت على بعد 40 كلم من قلب مدينة غرداية باتجاه حاسي لفحل، حيث تتفرع طريق صحراوية تؤدي إلى عرق ما زالت تنتصب فيه بئر ارتوازية بعمق 500 م تعود إلى حقبة ماضية، وهي من الأبيار القليلة التي ينساب ماؤها العذب الفرات مالئاً الدلاء.

في هذه المنطقة ذات الطبيعة المناخية الجافة والمدى الحراري الكبير، اختيرت النخلة كدعامة ولحسن الصدف اجتمعت كل الظروف من توفر الماء العذب الخالي من الأملاح؛ إلى طبيعة التربة ذات المكونات المتنوعة أهمها الحجارة التي تسمح بتوغل الجذور وتمنع تشكل طبقة من الأملاح على السطح كما هو حاصل في العديد من الواحات الصحراوية. أمّا صنف النخيل فقد وقع الاختيار على النوع المسمّى «دقلة نور» ذي الشهرة العالمية لأنها الأنسب في مثل هذه العروق الصحراوية.

المستقبل هو الزراعة.. هو العودة لخدمة الأرض وفق ما يحفظ لها خصوبتها

درس في التحدي

إذ كانت بتهيئة مساحة عشرة هكتارات بغية التحكم في أشغال الرعاية والسقاية، غرس عليها حوالي 700 فسيلة خضعت للفحص خشية وجود أمراض أفتكها مرض البيوض. ولأن مقاومة الفسائل للرياح تكون ضعيفة جداً في المراحل الأولى حيث تقتلعها هذه الأخيرة، يتدخل هنا الفلاح لتثبيت الفسائل كلما اقتضت الضرورة بوضع كومة من الرمل حولها مع مراعاة عدم المساس بلب الفسيلة لضمان التهوية الكافية. بينما على طول محيط الاستصلاح فقد تم صف مصدات للرياح من جريد النخل وأشجار نبات الزيتون الذي أثبت ميدانيا مقاومته لنوبات الجفاف وهذا لفترات طويلة.

ولسقي هذه الهكتارات، لجأ الفلاحون إلى نظام التقطير كنظام فعّال يقتصد المياه بعدما جربوا كل الطرق. كما تيّقنوا أنها الطريقة الأنجع لمنع نمو الأعشاب الضارة

عند فصل الفسيلة من النخلة الأم تردد عبارات وأهازيج من التراث الشعبي، إنها لحظة ميلاد حياة جديدة

مثل الخز الذي ظهر في المرحلة الأولى حين كانوا يعتمدون على تخزين الماء داخل أحواض كبيرة بسعة تقارب 400 م3 مفتوحة على الهواء الطلق كما كان من قبل.

وكذلك وإلى يومنا هذا، يعتمد الفلاحون على التلقيح التقليدي مستثمرين في ذلك ممارسات أملتها التجربة كحسن اختيار موقع النخل المذكر الحامل لغبار الطلع (ذكار) حسب اتجاه الرياح (فمثلاً لكل 500 نخلة هناك 10 نخلات مذكر) باعتبارها أهم العوامل الطبيعية التي تتدخل في عملية التلقيح، وأضيف لها النحل من خلال تربيته بدعم من الدولة. أيضاً من بين المهارات المحلية التي شدت انتباهنا وجود نبات البصل بكثرة حيث أخبرنا أحد الفلاحين المسنين الذين ورثوا الفلاحة «أن رائحة البصل تجلب حشرات تحمل بين أجنحتها وأطرافها غبار الطلع فتساعد هي كذلك في عملية التلقيح».

النخلة هي الأنسب

بعد هذه الخطوة، تبقى أنظار الفلاحين موجهة إلى الطور الأول لظهور الثمار المسماة محلياً رشوم في الفترة ما بين مايو وجوان (مايو ويونيو)، فقد تتعرض هذه الأخيرة لهجوم عنكبوت تعرف باسم (بوفروة) في الجزائر. تبني هذه العنكبوت عشها في شكل خيوط مغزلية بيضاء أو رمادية حول الثمرة مانعة وصول الضوء إليها فيتسبب ذلك في تعطل عملية البناء الضوئي مما يؤدي إلى تباطؤ النمو ومن ثمة توقفه، ولهذا يفقد الفلاحون محاصيلهم في مرحلة مبكرة إن لم تتم المكافحة في أوانها. وليس هذا فقط ما يتهدد النخيل، فهناك أيضاً دودة التمر والفطريات التي تنتشر في شكل نقط سوداء وبيضاء على طول الجريد والثمار ويكمن خطرها في سرعة انتقالها؛ وبعدة صور، من نخلة لأخرى ومن حقل لآخر، ويتصدر مرض البيّوض قائمة أعداء النخلة. لكن ولحسن الحظ لم تسجل أي حالة منذ عدة سنوات. من بين طرق الوقاية الأكثر فعالية والأقل تكلفة، هي مادة الجير حول جذع النخلة للقضاء على أغلب الآفات، بالإضافة إلى كونها مادة تخلو من الأضرار الجانبية.

وككل نبات، تحتاج النخلة إلى مواد عضوية تضمن لها النمو الجيد، حيث برهنت الممارسة أن ليس هناك أفضل من بقايا الإبل وبعض قطع الحديد التي تدفن في التراب على بعد بعض السنتيمترات من الجذر الرئيسي للنخلة.

عوائد وفوائد

عند فصل الفسيلة من النخلة الأم تردد عبارات وأهازيج متوارثة من التراث الشعبي، إنها لحظة ميلاد حياة جديدة تجرى بكل دقة وبأدوات يشترط أن تكون حادة ومعقمة بالنار. وفور إنهاء عملية الفصل يدهن موضع القطع بمادة دسمة منعاً لدخول الماء الذي يؤذي جذر النخلة. وبفصلها عن النخلة الأم، تبدأ الفسيلة مرحلة جديدة من عمرها تحددها التربة الأولى التي تحتضنها، وهنا يفضل الفلاحون؛ بحكم خبرتهم ودرايتهم بالنخيل؛ ملء حفرة الغرس بقليل من الرمل الصافي يكون تحته ذبال من بقايا الإبل. بعد الفسيلة، يكون ما يُسمى الجبار ثم النخلة... خمس سنوات من النمو حتى يتبين للفلاح إن كان قد وفق في اختيار الصنف أم لا. أمّا الثمار الأولى للنخلة فتكون متوسطة النوعية تتحسن في السنوات الموالية شريطة توفر العناية الكافية. في الجنوب الجزائري، العلاقة بين الإنسان والنخلة علاقة عمرها تاريخ البشرية، علاقة عمرها أيضاً يمتد إلى الفطام وسنوات المرح بين النخيل والمسامرة في ليالي الصيف، فكيف لا يرى في غرسها رجل الصحراء استمراراً له وللأجيال المقبلة.

البحث العلمي ومشاكل الواقع!

يتطلع فلاحو الاستصلاح إلى ما قد يقدمه لهم البحث العلمي؛ الذي يتم في المعاهد

عمري 76 سنة وما زلت أفرح كالأطفال حين تتنزل أولى قطرات الغيث ويجري السيل حاملاً معه الماء والطمي الضروري لخصوبة التربة

الجزائرية؛ من حلول لمشاكلهم المتراكمة فهم يخشون خسارة أعداد كبيرة من النخيل زاد طولها إلى حد صار من الصعب الاهتمام بها، والأدل على ذلك تلك الحقول والبساتين التي أهملت لهذا السبب فقد قل إنتاجها.

ومن بين المشاكل أيضاً التي تنتظر حلولاً غزو الأفاعي (بمعدل 80 أفعى في كل موسم) والجربوع الذي يتكاثر بالمقابل كلما تم القضاء على الأفاعي. خصوصاً مع وجود رغبة قوية لدى بعض الفلاحين لاجتناب كثرة المواد الكيماوية في ظل توسع تلك التجارب شاملة أشجاراً مثمرة مثل: التفاح، الكمثري، العنب بكثرة، وباقي الحمضيات، وحتى التوت، اللوز، الموز...إذ تسقى كلها بالتقطير.

الرهانات المستقبلية

في السنوات الأخيرة أصبح الجنوب الجزائري قبلة للمستثمرين، سيزداد التوسع فيه حسب التوقعات، بفضل تطبيق ما يُسمى بالمخطط الوطني للتهيئة العمرانية الممتد إلى غاية 2030، ممّا سيكون له انعكاسات إيجابية على مجال الفلاحة أو ما يسمى بالاستصلاح.

موارد طبيعية وأخرى بشرية

تُقدر مساحة الجنوب الجزائري حوالي مليوني كيلومتر مربع، وتتميز مساحته الشاسعة هذه بتنوع تضاريسها (جبال، رمال، عروق..)، مع وجود مائدة مائية جوفية مهمة إذ تكفي الآبار الارتوازية؛ المدروسة بعناية والمراقبة؛ لاستغلالها دون استعمال للطاقة وبالتالي تقل التكلفة خصوصاً في مناطق مثل المنيعة، زلفانة، القرارة، حاسي لفحل، وحتى إلى الجنوب الغربي كأدرار، وتوات. كما يتيح اختلاف الظروف الطبيعية إمكانيات كبيرة لتنوع المحاصيل الزراعية.

وبالمقابل يتخرج سنوياً من المعاهد الفلاحية المتواجدة عبر مختلف نواحي البلاد آلاف الإطارات (الموارد البشرية) بين مهندسين وتقنيين. كل هذه العناصر إذا ما استغلت وفق استراتيجية رشيدة ومستدامة مكنت من إحداث تغيير جذري في قطاع الفلاحة من حيث إدخال معارف وبحوث علمية وتقنيات حديثة تقدم حلولاً للمشاكل من خلال التحكم في نوعية وكمية الإنتاج. وفي هذا السياق ينتظر الكثير الدعم في مجال الزراعات الاستراتيجية كالقمح والكروم والبطاطا، والخروج من المشاكل التي تصنعها وفرة الإنتاج كما يحدث مع بعض المحاصيل في بعض المناطق كمحصول البطاطا الذي نجح بشكل ملفت للنظر بمنطقة وادي سوف في الجنوب الشرقي عند الحدود التونسية، لكن في ظل غياب مؤسسات تتكفل بعملية التخزين والتسويق وحتى الصناعات الغذائية التحويلية يتحول الإنتاج الوفير إلى عبء.

المستقبل هو الزراعة... هو العودة لخدمة الأرض وفق ما يحفظ لها خصوبتها... عبارة ظل يرددها على مسامعنا أحد الفلاحين وكأنه يريد أن يحمّل الجميع هذه الأمانة.

هل يصمد نظام السقي التقليدي

إن الداخل إلى ولاية غرداية عبر الطريق الوطني رقم واحد؛ الذي أنجزه شباب الخدمة الوطنية في سنوات السبعينيات؛ يشد انتباهه منظر واحات النخيل التي تمتد وسط الرمل والصخر الأصم، حيث تقول الحكاية إن المنطقة كانت في القديم بيداء قاحلة لا يسمع فيها إلا صوت الرياح ولا يرى إلا الحجر الأصم حطّ بها الرجل الصحراوي رحاله ليبدأ رحلة التحدي...

مع غروب الشمس وطئنا أرض غرداية قاطعين مسافة 600 كلم جنوب الجزائر العاصمة، وبالنظر إلى موقعها فهي تعتبر بوابة الصحراء الكبرى تتربع على سهل يقع أسفل مجموعة من الجبال. يتخلل هذا السهل واد يطلق عليه وادي ميزاب. وفي هذه المنطقة الصحراوية الصخرية، حيث يحسب لكل قطرة ألف حساب ويوضع لكل شبر ألف تخطيط، راح الإنسان يطوّع الصخر ليبني فوقه مسكنه تاركاً التربة للزراعة، فأصبحت بذلك معادلة «المسكن والخضرة» حاضرة في كل حساباته، فلا يجوز لأي طرف من المعادلة أن يحل محل الآخر حسب الأعراف. هذا النسيج البديع الذي يجمع بين واحات من نخيل وقصور من مواد بناء محلية قد ألهم الكثيرين ومنهم المهندس المعماري الفرنسي لوكوربزي«Le Corbusier ».

ولأننا نعلم جيداً أن غرداية هي منطقة جافة تشكو من قلة تساقط الأمطار وتذبذب فصوله، حوالي 45 ملم بالسنة أي ما يعادل عشرة أيام ممطرة في السنة، سألنا عن سر هذه الواحات الغناء التي تمتد على طول سهل وادي ميزاب ذي 86 ألف كيلومتر؟

الإنسان وصراع البقاء

لا يمكن اكتشاف أسرار غرداية إلا بمعية مرشد سياحي من أهل المنطقة، وفي جولتنا هذه رافقنا عمر عدون من بني يزجن الذي أخبرنا قائلاً: «إن إصرار الإنسان على البقاء والتعمير في غرداية دفعه إلى التفكير في نظام سقي محكم من حيث استخراج المياه وتجميعها وتوزيعها توزيعاً عادلاً».

ويعتبر هذا النظام الرشيد الذي أرساه الأوائل منذ حوالي ثمانية قرون من أقدم وأصلح أنظمة السقي في العالم يلائم بالخصوص المناطق الجافة، وهو منتشر عبر أغلب

واحات غرداية وقصورها الخمس، مما يسمح باستغلال المياه استغلالاً كاملاً، بحيث تستفيد كل ناحية من حصتها من هذا العنصر الحيوي بما يكفي حاجيات السكان المعيشية وكذا الفلاحية.

وحسب المشرفين عليه من بعض أبناء المنطقة الذين ما زالوا يتشبثون به كما هو الشأن في ناحية بني يزجن، فهو يعتمد، على النقاط التالية: اتجاهات الأودية، نقاط تلاقيها، حدودها، وأخيرا مجاريها. وما زال البعض إلى يومنا هذا يقيمون الآبار التي تجاوزت الآلاف كصدقة جارية يؤمها الناس من كل جهة لملء ما يحتاجونه من مياه هي للشرب فقط أو لتحضير كأس الشاي ذي النكهة الخاصة، فهؤلاء يحبذون مياه الآبار لأنها سائغة وخالية من مادة الكلس المضرة.

عيون باتجاه السماء

لقد سمحت لنا زيارتنا لنظام السقي الكائن بمنطقة تاجننت بمشاهدة العناصر الأساسية المكونة له وتتمثل في ثلاثة أجزاء متكاملة تضمن جر المياه وصرفها ثم توزيعها، وهي: سواقي التوزيع والسدود والأمشاط. كل هذه العناصر موجودة في بداية السيل نظراً لملاءمة المكان، على خلاف نهاية السيل حيث تكون الآبار مهيأة لحجز الماء.

حين يفيض الواد جراء نزول الأمطار تغمر المياه الواحات وهنا يأتي دور النظام التقليدي في استغلال هذه النعمة بحيث جزء منها يوجه عبر مجار واسعة نحو الواحات لترتوي أمّا الفائض؛ يبيّن المهندس باحمد لالوت من ديوان حماية واد مزاب وترقيته؛ فيصرف نحو السدود عبر منافذ أنشئت على مشارف الواحات للتحكم في كمية المياه المتدفقة، فإذا امتلأت السدود يعود الباقي إلى مجرى الواد مغذياً بذلك الطبقة الجوفية أثناء سريانه.

أمّا البساتين المرتفعة والتي لا تصلها مياه الغدير تحفر أمامها حفر عميقة تمتلئ أثناء جريان السيل تدعى باللهجة المحلية « أجّام»، ثم يستخرج أصحاب هذه البساتين حسب ما رواه لنا أحدهم كمية المياه المحتجزة مستعملين الدواب على الطريقة التقليدية قبل أن تجف الحفر أو ينفذ ماؤها إلى الأعماق.

الجفاف قادم

ولأن الفصل فصل شتاء، توقعنا وجود المياه بوفرة غير أن السيد باعلي صالح رئيس جمعية حماية البيئة لبني يزجن ذكر لنا أن بداية هذه السنة كانت شحيحة من حيث الأمطار وهذا هو حال غرداية تتذبذب فيها حياة الإنسان بتذبذب الغيث. فأحياناً يكون الطوفان في دقائق وأحياناً تجف السواقي حتى لأكثر من ثلاث سنوات حتى تبدو كتجاعيد حفرها الزمن.

فيما مضى وبفضل الصيانة الدائمة لأجزاء نظام السقي شرح لنا السيد أحمد بكاي

أحد شيوخ المنطقة المعمّرين « كانت الظروف القاسية لا تؤثر كثيراً في وفرة المياه لأننا كنا نتهيأ للجفاف حتى في أوج الخصب وكانت أعيننا لا تغفل عن رعاية وصيانة نظام السقي هذا.» ثم واصل حديثه الذي يبعث القلق على مصير هذا الإرث الثمين ذاكراً لنا كيف نقصت أعمال التويزة وهي العمل الجماعي التطوعي بغرض ترميم الأجزاء التالفة وتنظيف الممرات من الرواسب التي تعرقل تدفق المياه عبرها. زيادة على زحف الاسمنت الذي أكتسح الأراضي المخصصة للزراعة بسبب تخلي الناس عن النشاط الفلاحي (الزراعي) الذي كان المصدر الأساسي لرزق العائلات في وقت سابق.

واصلنا توغلنا داخل البساتين وهذه المرة داخل تلك المحيطة بقصر تغردايت في الجهة الشمالية للولاية باتجاه ضاية بن ضحوة حيث لا يُسمع فيها إلا صوت الدواب والعصافير من حين لآخر، التقينا بأحد الفلاحين في زيه التقليدي، ورغم كبر سنه إلا أن عزيمة الشباب لم تفارقه، وحين أدرك سبب مجيئنا استرسل قائلاً «عمري 76 سنة وما زلت أفرح كالأطفال حين تنزل أولى قطرات الغيث ويجري السيل حاملاً معه الماء والطمي الضروري لخصوبة التربة» ثم أشار بيده «حتى هذا البيت الذي عشت فيه أغلب سنوات عمري صنعته من طين الواد فهو منعش صيفاً ودافئ شتاء.»

هذه الفرحة لم يدم أثرها طويلاً في نفوسنا حين وقعت أعيننا على أجزاء كبيرة من نظام الري التقليدي بهذه الناحية وقد تهدمت ودفنت تحت الرمل وبقايا جذوع النخل. فبرغم وجود هيئة محلية تسمى «أمنّاء السيل» تشرف على تسيير وصيانة النظام إلا أن مجهودها لوحدها يبدو جلياً غير كاف.

هل من خطة لإنقاذ ما تبقى؟

صنفت ولاية غرداية عام 1982 من قبل اليونسكو كتراث عالمي محمي ويعتبر النظام التقليدي لتسيير وتقسيم مياه السيل تراثاً وذاكرة حية وجبت حمايته، لكن مفاجأتنا كانت كبيرة حين أخبرنا السيد باحمد لالوت؛ مهندس معماري بديوان حماية واد مزاب وترقيته؛ بأنه لا توجد ميزانية لصيانة وترميم النظام، بل الاعتماد في ذلك فقط على تبرعات المحسنين من حين لآخر، لكن يد واحدة لا تصفق.

ولأن الجزائر، حسب تقارير خبراء التنمية في الأمم المتحدة بمناسبة اليوم العالمي للمياه لهذه السنة، هي من بين الدول التي يُتوقع أن تدخل دائرة الفقر المائي في السنوات القادمة إن لم تعجّل باتخاذ التدابير اللازمة للتسيير العقلاني لمواردها المائية، الأمر ذاته ينطبق على نظام السقي التقليدي الذي أدى إهماله إلى الكارثة التي عاشتها ولاية غرداية بأكملها في شهر أكتوبر 2008، إذ تسبب تضييق مجرى السيل بسبب البناء العشوائي داخله وكذا غلق المنافذ وهشاشة بعض أجزاء النظام في عدم التحكم في كمية السيل المتدفقة والتي تسببت في أضرار بليغة في الأرواح والممتلكات. بالأمس وجد ساكن غرداية نفسه وحيداً في صحراء قاحلة، وليس في يده سوى أدوات بدائية وكان الجفاف أمامه والجفاف وراءه، أحس أنه هالك لا محالة فاستحضر عقله وإرادته وقرر البقاء، فهل يستحضر ساكن اليوم سيناريو المستقبل ويكون خير خلف لمن سلف؟ وأختم مقالي هذا في هذه الأبيات رثاء لحال هذه النخلة التي كانت تزهو يوماً بخضرتها واليوم أجبرت على الانحناء ولكن أكيد دوام الحال من المحال:

قُل للذي هجرني يوماً
حتما سترجع إليّ يوماً
وتدرك أنني ثروة لا تزول
وأنني أرثُ الأرض بعد البترول
كُنتُ الزاد والميعاد لأجدادك
فهل يبقى من الذكرى شيءٌ لأحفادك
خُلقت لأبسط رأسي إلى السماء
لكنَك جَهلت وأجبرتني على الانحناء
للعطش والإهمال تركتني
وبين القطع والحرق ما خيّرتني
قُل للذي سلبني خُضرتي
ما عاش نسْلُك لو لا ثمرتي
أنا النخلةَ من طينة آدم
أنا النهضة للجيل القادم